Journal of Humanitarian and Applied Sciences – مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية
(رقم الإيداع المحلي - 2020/95) – (ISSN: 2706 – 9087) - (معامل التأثير العربي شهادة رقم: 472 – 2020)
كلية الآداب والعلوم قصر الأخيار – جامعة المرقب
Volume 8 – Issue 16 المجلد 8 – العدد 16

امبراطورية الفولاني – سطوة العرق والدين

د. محمد أبوراوي حسن العماري

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب والعلوم مسلاته – جامعة المرقب

ma.alamary1972@gmail.com

Received: 19/8/2023 | **Accepted: 2/9/2023**

Abstract:

The research aims to study a model of Islamic movements in the modern era and shed light on their role in harnessing the societies in which they arose to serve what they believe to be the true religion, which is an event of great importance, given the deep, continuous and escalating impact on the life of the public to this day. The study concluded that the movement of Sheikh Othman Dan Foday, the subject of the research, was not devoid of worldly motives, despite all the religious slogans that it called for, and for which the blood of its supporters and opponents was spilled together, and because of it removed thrones and entities that knew and embraced Islam before it.

keywords: The Fulani Empire, Sheikh Othman, Commander of the Faithful, Kanem-Borno, Jihad, Muhammad Al-Amin Al-Kanemi, Takfir, Call, Hausa, Armies.

المستخلص:

يهدف البحث إلي دراسة نموذج من الحركات الإسلامية في العصر الحديث، وتسليط الضوء علي دورها في تسخير المجتمعات التي نشأت فيها لخدمة ما تعتقد أنه صحيح الدين، وهو حدث علي قدر كبير من الأهمية، بالنظر إلي عميق تأثيرها المستمر والمتصعد علي حياة العامة إلى يوم الناس هذا، وقد خلصت الدراسة إلى أن حركة الشيخ (عثمان دان فودي) موضوع البحث، لم تكن مجردة من الدوافع الدنيوية؛ بالرغم من كل الشعارات الدينية التي نادت بها، والتي أراقت لأجلها دماء أنصارها وخصومها معاً، وأزالت بسببها عروش وكيانات عرفت الإسلام واعتنقته قبلها.

الكلمات المفتاحية: امبراطورية الفولاني، الشيخ عثمان، أمير المؤمنين، كانم – بورنو، الجهاد، محمد الأمين الكانمي، التكفير، الدعوة، الهوسا، الجيوش.

مقدمة:

منذ قديم الأزل والأديان مطية الطامحين إلى التسلط والاستحواذ، فلم تكن القيود والموانع التي تفرضها المعتقدات حائلاً في يوم من الأيام بين الأقوياء وشهواتهم، حتى إن سؤالاً يظل حاضراً دائماً وبقوة حال الولوج في أي نقاش يحاول مريدوه فك الارتباط بين السلطة والدين، أو هل الدين سلطة في ذاته، فمن الوثنية إلى إضفاء صبغة الألوهية على الملوك بوصفهم ظل الله في الأرض، إلى الإصلاح الديني في أوروبا، والذي أمسى في محصلته وسيلة لتحقيق مآرب المكيافليين أو النفعيين لتحقيق رؤاهم بل وحتى إشباع مجونهم وغرائزهم، حيث تحول هنري الثامن من الكاثوليكي المتعصب والمبارك من بابا روما بلقب حامي الإيمان إلى مصلح ديني، وملوك السويد والدنمارك الذين دفعوا حدود ممالكهم إلى مناطق أبعد خلال هذه الهوجاء.

ويبدو أنه لاشك في انعدام المسافة والمساحة أيضاً بين الأديان والحكم، وهو ما يُعد مبرراً ومقبولاً في المعتقدات الوضعية أو حتى المنزلة، والتي مارس سدنتها أعتى درجات الصلف واسترقاق واستحمار أتباعها من خلال صكوك الغفران، والحرمان من المغفرة، وما إليها.

وغير بعيد عن ذلك تطل الحالة الإسلامية في مشهد معقد وملتبس من خلال حركات تدثرت بالدين، وبتتبع تطورها التاريخي ومعالجتها لمسألة الحاكمية في أدبياتها لا يبرز أية فرق بينها وبين من انتهجوا وسائل أخرى غير الدين للتسلط على رقاب العباد.

يحاول هذا البحث التعرض إلى امبراطورية الفولاني كأنموذج للحركات الإسلامية التي شهدها القرن التاسع عشر، ونتناول من خلاله إشكالية العلاقة بين العقيدة والنوازع البشرية للمنظرين لها، فهل كان مؤسسها الشيخ عثمان دان فودي مصلحاً حقيقياً ولم تكن له مآرب دنيوية؟ وعلى أي حق استند في إزاحة كيانات كانت قائمة منذ زمن؟ وكيف وظف مصطلح الجهاد في دعوته؟ ولماذا تغير مفهوم الجهاد عنده في مرحلة لاحقة لتأسيس الدولة؟ أو بأي حق أعطت قبائل الفولاني لنفسها صفة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتُعمل أدوات القتل والتدمير في وجه كل من وقف أمامها حتى من السابقين عليهم في الإسلام، ومن الذين يضاهون إن لم يفوقوا شيوخهم علماً وفقهاً.

أعتقد إن محاولة الإجابة على بعض هذه الأسئلة أو حتى جميعها بالاعتماد على المنهج السردي والمنهج التحليلي بأداتيه النقد والتقويم، يمكن أن يقود إلى فهم مختلف لتاريخ هذه الحركات وتداعياتها على مناحي الحياة عامةً عند الشعوب التي لا تزال ضحيتها إلى يوم الناس هذا، وهو ما يضفي أهمية لا بأس بها على هذا البحث، خاصةً وأن هذه التنظيمات لازالت تعيد إنتاج نفسها وإن كانت بأشكال مختلفة ظاهرياً فقط.

قبائل الفولاني – جذورها وموطنها الأصلي وترحالها –:

مثلت قبائل الفولاني حالة خاصة في التاريخ الإفريقي، حتى أضحت مثار جدول واسع في كل ما يتعلق بها من حيث تعدّد مسمياتها، فالفولبا واليوربا والفلاتة وروماو جميعها واجهة واحدة لذات المكون، وهو وإن اكتفى الدارسون بتبريره بتعدد الألسن في المنطقة (عثمان، 1990)، فإن سمات أخرى لم يكن من اليسير عليهم إرجاعها لعلة واضحة، الأمر الذي أبقى مجال الاجتهاد مشرعاً حول جذورهم وموطنهم الأصلي، فميلهم إلى العيش منفصلين عن الجماعات الأخرى المجاورة لهم؛ واستعلائهم عليهم واعتزازهم بجنسهم – بل إن اختلافاً جوهرياً في تكوينهم الجسماني وسحنتهم والذي يتمظهر في كونهم أقل سمرة من عموم الزنوج إضافة إلى لونهم النحاسي الفاتح وشعرهم المستقيم وشفاههم الرقيقة وعودهم القوي الدقيق وقامتهم المتوسطة ورؤوسهم طويلة الشكل على عكس شعوب غرب أفريقيا ذات الرؤوس العريضة علاوة على أنهم الشعب الوحيد في القارة الذي يعتمد على حرفة الرعي كوسيلة عيش وحيدة (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984) – جعل من تحديد أصولهم شيئاً بالغ الصعوبة، وإن كان اليقين فيه أنهم جماعة قائمة بذاتها ومغلقة على نفسها وشاذة عن محيطها.

لقد تعددت روايات الباحثين بين من نسب الفولاني إلى الفراعنة ومن أرجعهم إلى أمازيغ الشمال، وبين من أعادهم إلى الهنود وحتى اليهود والفينيقيين والأحباش (عثمان، 1990)، فيما اختاروا هم لأنفسهم النسب العربي (بل، مخطوط)، وأيّاً كان الأمر فإن حالة من الخصوصية والتفرد جعلت من هذه الجماعة تجنح اجتماعاً وسياسياً إلى العيش منفصلة عن بقية مكونات غرب القارة

وفي ترحال مستمر بحثاً عن وطن يلم شعثهم خالصاً لهم دون غيرهم، فمن المناطق المجاورة لنهر السنغال وغرب أفريقيا عموماً نفرت قبائلهم في أواخر القرن الخامس عشر في اتجاه الشرق بعيداً عن النزاعات السياسية المتلاحقة وصراع السلطة الدامي الذي صبغ جانباً من تاريخ تلك الفترة (كاني، 1986)، ذلك أنهم تعرضوا للعديد من النكبات ومنها هزيمتهم على يد حاكم مملكة سنغاي Sangai في عام 1492م، ومع التحول الكبير الذي عقب حملة منصور الذهبي والمتمثل في القضاء على دولة السنغاي شرعت قبائل الفولاني في الإغارة على مزارع الزنوج بعد أن ازداد عددهم بفعل الهجرات المتلاحقة، والتي أدت إلى تمتعهم بوضع مستقل، مارسوا خلاله نظمهم الخاصة في الحكم وفي جمع الضرائب واستمروا قبائل غازية تعتاش على مهاجمة الزنوج، مكتفين بمغادرة المناطق التي يقطنونها في حال حاول أحد الأمراء أو الحكام إدخالهم تحت طاعته (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984).

لقد كان البحث عن مراعي جديدة بدلاً عن مراعيهم السابقة التي أنهكها الرعي الجائر والمستمر حتى غدت غير كافية لمواشيهم، ناهيك عن الزيادة المطّردة في تعدادهم ما جعل المنطقة تضيق بهم دافعاً آخر للارتحال، فكانت إمارات الهوسا، نهاية لترحال وتنقل طويل، ونقطة تجمع لقبائل الفولاني، والتي حجت إليها في هجرات، متعاقبة واستقرت فيها محافظة على ثقافتها ونقائها العرقي والجنسي (بوفيل، 1988).

الخطوات الأولى في مشروع الشيخ عثمان:

إن حديثاً عن الشيخ عثمان دان فودي، مولده ونشأته ونسبه وعلمه وشيوخه[1]، الذين أودعوا فيه ما يعتقده البعض ورعاً وتقوى، لا يجدر بنا الخوض فيه هنا، على اعتبار أنه أشبه بالحكم المسبق، أو المقدمات التي لا تترك مجالاً للقارئ إلا أن يعتقد بأنه شخصية مصلحة لم يكن للإسلام أن يستقيم بدونها في هذه الربوع المقفرة أو حتى الآخّاذة، خاصة وأن كثيراً من التبجيل والإطراء حد الافتتان بشخصه صبغ أغلب الكتابات التي حاولت أن توثق تاريخه وأخبار دولته وملكه، ولذلك فإن تتبع خطواته في اتجاه هدفه والذي خطط له مبكراً على ما يبدو يظل مجدياً أكثر، فالهالة التي أحاط بها نفسه والقداسة التي حرص على التحلي بها بين أتباعه تبدو كاشفة إلى حد بعيد ما كان يرمي إليه، وليس أدل على ذلك من قوله: "عندما بلغت الأربعين سنة وخمسة أشهر وبضع ليالي جذبني نبي الله إليه، فوجدت هناك الصحابة والأنبياء والأولياء حيث رحبوا بي، وأجلسوني وسطهم، ثم جاء سيدي عبد القادر الجيلاني بثوب أخضر، وقد ناداني باسم أمام الأولياء ثم قلدني سيف الحق" (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984)، وغني عن البيان وقع هذا الكلام على مجتمع بسيط تغلب عليه الفطرة، علاوة على ما فيه من استحضار لحالة النبوة والتفويض الإلهي أو النبوي على أقل تقدير، فعمره عند التقاءه بالرسول صلى الله عليه وسلم مقارب لسنه عليه السلام عند بعثته، واجتماعه في مجلسه بالصحابة والأنبياء والأولياء وجلوسه وسطهم وترحيبهم به أراد بها الإيحاء بدعمهم ومباركتهم له، فضلاً عن مناداته بإمام الأولياء وتقليده السيف التي استدعى فيها ما نسب إلى الرسول بأنه بُعث بالسيف ورزقه المقرون بظل رمحه في تبرير واضح لما ينوي القيام به أو قام به فعلاً.

[1] للاطلاع على تاريخ ولادة ونشأة ونسب وتعليم الشيخ عثمان يمكن الرجوع إلى: عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، 1961م، ص199م، كذلك: حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1991م، ص189، وما بعدها، كذلك: محمد بل، المصدر السابق، ص29، وما بعدها، أيضاً حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي ، 2001م، ص221 وما بعدها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى أقرب ما يكون إلى ادعائه معرفة الغيب، حيث شاع بين جماعته أن أحد الأمراء قرر التخلص منه بعد أن داع صيته، بأن أمر بحفر بئر سحيقة داخل بلاطه، ثم فرش عليه بساط أملس ودعاه للجلوس عليه، ولكنه أبى، وأخبره بما دبر له، فما كان منه إلا أن خلى سبيله (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984)' وعلى الرغم من أنه ينكر بأن الجن قد سُخرت له ويعده باطلاً قطعاً، إلا أنه يترك الباب مواراً لمن أراد تأويل كلامه من أتباعه، متحدثاً بتواضع العالم ببواطن الأمور فيقول "يا إخواني إني ما ادعيت القطبانية ولا الولاية وإنما ذلك من أفواه الناس كما يُسمع من أفواههم يقولون أني أطير وأمشي على الماء وتطوى لي الأرض وأمشي إلى مكة والمدينة وقد سُخرت لي الجن كما سُخرت للأولياء الكُمّل" (كاني، 1986).

وكأن كل هذه الكرامات لم تكن كافية لترسيخ صورته التي أرادها لنفسه في عقول وقلوب مريديه، وفي مشهد يعكس الفهم العميق للنفس البشرية، ومدى تأثيرها بالغيبيات ادعى على الملإ أنه على علاقة مع الجن منذ ريعان شبابه "وأما أمر الجن فغاية ما عرفته في نفسي أنهم ظهروا لي في زمن الصبا وسني إذ ذاك ثلاث عشر، ثم غابوا عني، ثم ظهروا لي أيضاً في زمن الشباب وسني إذ ذاك خمس وعشرون، وما زالوا من ذلك الوقت يظهرون لي في وقت ثم يغيبون عني في وقت إلى وقتنا هذا، ولكن ذلك من اختيارهم" (كاني، 1986).

وأياً كان الأمر فإن رواج مثل تلك الأحاديث بين الناس كفيلة بإلباسه حُلة من القدرات الخارقة ومسوح وقداسة تجعله محل اعتقادهم.

ويبلغ الاعتداد بالنفس أشده عند الشيخ عثمان، عندما يتطاول ليعقد مقارنة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان في جانب واحد وهو التبشير به قبل مولده، وينظم في ذلك قصيدة باللغة الفولانية ما ترجمتها أن النبي صلى الله عليه وسلم بُشر به قبل مجيئه، وأن بحمد الله كذلك بُشر بي (عبدالظاهر، 1991)، وفي هذا الشأن لا يجد ولده محمد بل حرجاً في القول بأنها ليست بشارة واحدة، ولكنها بشارات من مصادر عدة وليست حتى من معين واحد، ومن رجال ونساء اشتهروا بالتقوى ولم يُعرف عنهم إلا الصلاح والورع، ومنهم العالم الفقيه على حد وصفه أبوبكر الباركوم والشيخ بوكان أو الشيخ ولد ديد وهو من الأولياء الصالحين والعلماء، والكلام لا يزال لنجل الشيخ حدث جماعته قائلاً: "قد أظلكم زمان ولي من أولياء الله، يظهر في هذه البلاد يجدد الدين ويحيي السنة، ويقيم الملة، فمن أدركه فليتبعه، وعلامته أنه يجاهد أولاً باللسان حتى يتبعه أكثر الموفقين، ثم يجاهد بالسنان ويملك هذه البلاد..." (بل، مخطوط)، ولم تتأخر أم هاني الفولانية كذلك في التبشير بقدومه، وهي ولية صالحة فتقول "يظهر في هذا القطر السوداني ولي من أولياء الله يجدد الدين ويحيي السنة ويقيم الملة ويتبعه الموفقون ويشتهر في الآفاق ذكره ويقتدى العام والخاص بأمره ويشتهر المنتسبون إليه بالجماعة ومن علاماتهم إنهم لا يعتنون برعي البقر كعادة الفولاني، ومن أدرك ذلك فليتبعه (بل، مخطوط).

على أن ما يستوجب الوقوف عنده هنا هو ما يحمله من تناقضات في نهجه وشخصيته، وبطرح لا يتفق مع مسلك التدين الذي يعيشه أو يتقمصه، ويتعارض مع آراء نظرائه من المجتهدين، ومنها ممارساته التي يختلط فيها الخيال بالغيبيات وبحديث النفس والقدرات الخارقة، كادعائه بأن حاكم إمارة جوبر طلب منه الدعاء له ليتمكن من فتح أحد المدن التي استعصت عليه في عدد من المرات، فبشره بفتحها قبل أن ينزل بها، على أن يكتفي بها وأن لا يتجاوزها لغيرها، وهو ما حدث تماماً إلا أنه خالف وصيته، وقال رأينا دعوة الشيخ فسنرى عمل رماحنا، وهاجم مدينة أخرى فهُزم وقُتل ابنه ثم لحق به كمداً وحسرة عليه، وعندما عاود ولده الذي خلفه على العرش غزوها انتقاماً لوالده وأخيه نهاه الشيخ عثمان عن ذلك فأبا فكان مصيره مصير من سبقه (عبدالظاهر، 1991)'

فيما يورد شقيقه عبد الله أن ينف حاكم جوبر حاول إشعال النار في الشيخ بقصد التخلص منه حرقاً ولكن النار ارتدت عليه وكادت تلتهمه، "جاء إلينا ونحن ثلاثة، الشيخ وأنا وعمر الكموي، فضرب علينا نفطة ليحرقنا بناره فرجعت النار إليه فكادت تحرقه ونحن ننظر إليه ولم يتحرك واحد منا وفر متقهقراً" (عبدالظاهر، 1991).

وما يستدعي الانتباه أيضاً في مسيرته العديد من الشطحات التي كانت له ومنها روايته عن سند سورة الفاتحة والتي يدعى أنه تلقاها عن طريق الجن، وبهذه العبارات تحديداً "أما الفاتحة فقد تلقيناها من شيخنا أبي الأمانة جبريل بن عمر وولده النجيب أبي توفيق عمر، وهما من أبي الفيض محمد مرتضى الحسين الواسطي، وهو من عمر بن أحمد بن عقيل الحسيني، وهو من (البرمار) مؤدب الأطفال (شيخ الجان) وهو من قاضي قضاة الجن (شمهورش) الولي، وهو من النبي صلى الله عليه وسلم (عبدالظاهر، 1991).

وينقل عنه ابنه ما يستعصي عن الفهم والتفسير وما نصه، "وقد أمده الله تعالى بأنوار الفيض وجذبه إلى حضرته وكشف له عن حضرة الأفعال والأسماء والصفات، وأشهده غرائب الذات، فصار بحمد الله من أولياء الله يكرع من كاسات القرب ويكتسي من حلل العرفان والحب وقلده الحق تعالى تاج العناية والهداية، وأهله للدعوة إليه وإرشاد العامة والخاصة، وأخبرني أنه حين حصل له الجذب الإلهي ببركة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان يواظب عليها من غير ممل ولا كسل ولا فترة أمده الله بفيض من الأنوار بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني وجده الرسول صلى الله عليه وسلم فشاهد من عجائب الملكوت وحصل على غرائب الجبروت وشاهد سرائر الأفعال والأسماء والصفات والذات ووقف على اللوح المحفوظ وفك رمزه المحفوظ وكساه الحق تعالى حلة الدعوة إليه وتوجه بتاج الهداية والإرشاد، فنادى منادي الحضرة أيها الناس أجيبوا داعي الله ثلاث مرات، ثم قال يوفك عنه من أفك ثم رده الحق تعالى إلى محل الإفاقة ليتأتى له الإرشاد والدعوة وربما تعاهدته أنوار الجلال فقبضته أو تفقدته أنوار الجمال فبسطته مع أنه من أهل الدعوة إليه (بل، مخطوط).

الطور السلمي لحركة الشيخ عثمان:

متأسياً بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم باشر الشيخ عثمان في حشد الأتباع والأنصار حوله بالدعوة إلى العودة إلى صحيح الدين، ونبذ كل ما علق به من شوائب وبدع، متخذاً من دروس العلم وحلقات الذكر التي يعقدها سبيلاً للتأثير على عقول العامة وإقناعهم باتباعه، وقد أصاب نجاحاً كبيراً جعل من نافاتا Nafata حاكم إمارة جوبر يضيق به وخاصة بعد الازدياد المطّرد في عدد تلاميذه وحواريه، فما كان منه إلاَّ أن هاجر إلى أطراف الإمارة جامعاً حوله الطلاب والمريدين ماضياً في دعوته دون كلل أو ملل غير عابئاً بمواقف نافاتا العدائية تجاهه، والهادفة إلى تقييد حركته والحد من تأثيره على رعيته (زكي، دت).

لقد أصبح للشيخ عثمان ثقل كبير بين العامة، ما اضطر حاكم جوبر لمهادنته والتغاض عن تصرفاته التي وصلت حد التدخل في شؤون الحكم، إلى أن جاء الوقت الذي كان لابد فيه للأمير الجديد والذي تتلمذ على يديه في صباه واعتلاء العرش بدعمه ومباركته من أن يضع حد للخطر الداهم الذي بات يشكله على حكمه (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984)، ولجم الاستفزازات المتواصلة التي يقوم بها والتي بلغت حد إيواء المعارضين له والخارجين عليه، ورفض تسليمهم له, ما دفع بالعلاقات بينهما لنقطة اللاعودة (إبراهيم، 1989).

- **المواجهة مع إمارات الهوسا وقيام امبراطورية الفولاني:**

يرى الفيلسوف الألماني فردريك هيجل بأنه إذا ما قُدر لأمة أداء دورها في التاريخ لتتصدر مسرح الأحداث تلاشت الهوة بين الإمكانيات المعبرة عن الوجود بالقوة وبين الواقع الموضوعي المعبر عن الوجود بالفعل (صبحي، 1994) وهو ما يبدو مطابقاً لواقع الحال تقريباً، فبعد أن تأكد الشيخ عثمان من أن جماعته قد اشتد عودها صدح فيها قائلاً بأن استعداد السلاح سُنة، فباشروا في جمع ما أمكنهم منه (عبد الظاهر، 1991)' ولأن الخروج عن ولي الأمر محرماً شرعاً كان لابد له من إيجاد تبرير لما اعتزم القيام به فانتهج أقصر الطرق لذلك.

لقد أفتى الشيخ عثمان بكفر إمارات الهوسا شعوباً وحكاماً (الشيخ، 1983)، بعد أن صرّح بوجوب البيعة للإمام، معتبراً أن ترك المسلمين بدون بيعة غير جائز شرعاً، وفي إشارة واضحة إلى مواصفات الإمام التي لا يراها هو وأتباعه تتوفر في سواه شدد على أن الناس يجب أن تكون على باب العالم، ولا أن يكون هو على بابهم، وفي تصعيد صريح للهجة الخطاب وفيما اعُتبر إعلاناً للحرب وجه رسالة إلى أهل البلاد عنونها بوثيقة أهل السودان، نورد بعضاً مما جاء فيها: "وثيقة من ابن فودى أمير المؤمنين إلى جميع أهل السودان...، فاعلموا يا إخواني أن الأمر بالمعروف واجب إجماعاً، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعاً، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعاً، وأن موالاة المؤمنين واجبة إجماعاً، وأن تأمير أمير المؤمنين واجب إجماعاً وأن طاعته وجميع نوابه واجبة إجماعاً، وأن الجهاد واجب إجماعاً، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعاً، وأن حكم البلد حكم سلطانه إجماعاً، إن كان مسلماً كان البلد بلد إسلام، وإن كان كافراً كان البلد بلد كفر وجبت الهجرة منه..." (كاني، 1986).

وجدت قبائل الفولاني ضالتها في دعوة ابن فودي، وهي التي عانت ردحاً من الزمن من الاضطهاد والقمع والضرائب الباهضة التي كانت تجبى منها، والتي طالب الشيخ عثمان حكام الهوسا مراراً برفعها عنهم وهو الذي يحمل عقدة المظلومية ذاتها والتي لازمت عامة أبناء قوميته، جراء ما لقوه من قسوة منهم والذين ظلوا يعاملونهم كغرباء ومتمردين ودخلاء، ناهيك عن حالة التعصب العرقي التي صبغت علاقة الفولاني مع غيرهم من المكونات (عبدالظاهر، 1991)، وكذلك (الشيخ، 1983).

كان البحث عن مركز لحشد الإمكانيات وفرز وتجميع الأنصار والداعمين ورص الصفوف الدافع الرئيس وراء هجرة أمير المؤمنين، ومنطلقاً لتكوين مجتمعه الإسلامي الجديد وبداية لمرحلة مختلفة عن سابقتها (الشيخ، 1983)' حرص على أن تكون مشبّعة ومثقلة بالرموز استهلها بدعوة أنصاره إلى مبايعته على المنشط والمكره تحت شجرة في أطراف الصحراء، في استحضار صريح وواضح لبيعة الشجرة المعروفة، ثم خلع على نفسه لقب أمير المؤمنين، بعد أن كاشفهم بمشهد فيه من الغيبيات والتجلي ما يزيدهم افتتانا وتعلقاً به، حيث يصفه أحدهم قائلاً: "....جمعهم الشيخ وقال: إيتوني بسرير وغطى، فأتوه به فلما جلس عليه حيأ الجماعة وحمد الله وأثنى عليه، ثم أجال يده بين السماء والأرض وقبضها، وقال: كل امرئ ذي لحية قد أخذت تدبيره اليوم فهي اليوم بيدي إلا ما يدبر لأهله، ثم أجالها مرة أخرى وقبضها وقال: نزعت مُلك كل ذي مُلك إلاَّ من أتاني هنا، ثم أجال يده ثالثة وقبضها وقال: كل من أخرجني من داري يخرجه الله من داره، ثم دعا ودخل الدار" (عبدالظاهر، 1991).

تنادت قبائل الفولاني من كل فج عميق نصرة لقائد انتظرته طويلاً، وانضمت إليه في مهجره (بل، مخطوط)، ما جعله لا يتردد في مراسلة جميع حكام الهوسا طالباً منهم مبايعته، وإن كانت بصيغة العودة إلى الله والتبرؤ من كل ما يخالف الشرع واللاتحاق به ومساعدته في حربه ضد عدو الله وعدوه حاكم إمارة جوبر، متوعداً إياهم بالهلاك من الله جزاءً لهم في حال تقاعسهم عنه، ومساندة غريمه (كاني، 1986).

استشعر أمير جوبر الخطر بعدما أظهره ابن فودي من قدرة على التعبئة والحشد، فحاول تدارك الأمر عارضاً عليه الصلح، فجابهه بعدة مطالب وشروط عدها تعجيزية، أو على الأقل قدح في مسلكه وإيمانه، ومنها أن يتوب إلى الله ويخلص له، وأن يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، وأن يقيم العدل بين رعيته ويرد إلى الجماعة كل ما سلبه هو وأتباعه منهم أثناء هجرتهم، وأن يطلق سراح جميع الأسرى (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984).

بعد أن قرر الطرفان الاحتكام للسلاح باشر كليهما في إعداد العدة لذلك، ففي حين استنصر يونفا بزملائه حكام الإمارات الأخرى والذين أجابوا دعوته لاعتقادهم بأن الخطر الذي يتهدده لن يستثنيهم في حال تمكن من القضاء عليه (طرخان، 1975) وكذلك (إبراهيم، المسلمون والأستعمار الأوروبي في أفريقيا، 1989)، قام أمير المؤمنين بحفر خندق حول مهجره بعد أن انتهى من تنصيب قادة الجيوش، والذين اصطفاهم من الفولاني عدا واحد فقط، حيث اتخذ من ابنه محمد بل قائداً عاماً، وأخوه عبد الله وزيراً أولاً(بل، مخطوط) وكذلك (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984)، وسرعان ما تحولت الحرب من كر وفر في البداية إلى انتصارات ساحقة ومتتالية لجيوش الفاتحين والتي تمكنت في الفترة من 1804م إلى 1812م من استباحة جميع إمارات الهوسا، والتي تساقطت الواحدة تلو الأخرى تحت سنابك خيول الفولاني (ذهني، 1988)، التي ألهبتها حمية العرق وأيدلوجية الدين، فبعثت فيها روحاً وثابتة نحو المجد والتعبير عن الوجود بالقوة وبالفعل.

الجموح الفولاني والاصطدام بإمبراطورية كانم – بورنو:

لم يشفع لكانم – برنو قِدم إسلامها وتجذر ارتباطها به، فما أن فرغت جيوش الفولاني من الاستحواذ على إمارات الهوسا، حتى استدارت نحوها، وبذات المبررات والأسباب الظاهرية التي استحلت بها الكيانات السابقة، وبعيداً عن ذريعة التكفير والخروج عن الملة، والتي كانت الحجة التي اعتمدها أمير المؤمنين للإطاحة بمناوئيه – تارة باتهامهم بإنكار معلوم من الدين بالضرورة كأمراء الهوسا، وأخرى بموالاة الكافرين والذين لا يواليهم إلا كافراً كما هو حال أئمة وسلاطين كانم – بورنو (كاني، 1986)، – فإن أسباباً جوهرية كانت تدفع الطرفان نحو الصدام، فإمارات الهوسا كانت مرتبطة بشكل ما مع كانم – برنو، وغنياً عن البيان ما يترتب على هذه التبعية من التزامات كالنصرة والمؤزرة عند الحاجة، بالإضافة إلى العوائد المالية التي تستتبعها، هذا فضلاً عن كونها مناطق نفوذ حرص كل من تناوبوا على بلاط كانم – برنو على التمسك بها (الشيخ، 1983)، وعلى الجانب المقابل فإن عدد من قبائل الفولاني أثناء ترحالها الطويل استقرت في أطرافها، وأصبحت خاضعة لسيادتها، وما أن اندلعت الاشتباكات بين حكام الهوسا والشيخ عثمان حتى هبت لنصرته، وأخذت في مغادرتها ملتحقة به في مهجرة.

قصد أمراء الهوسا سلطان كانم – بورنو، طلباً للدعم والمساندة بعد الخسائر والهزائم التي حلت بهم (يونس، 1976)، فأجابهم بالعمل على منع التحاق الفولاني الخاضعين لسلطته بجبهات القتال، في محاولة منه لتخفيف الضغط على حلفائه، إلا أن ذلك لم يفت في عضضهم، واستمروا في التوافد على ساحات الوغى نصرة لأبناء جلدتهم، الأمر الذي اضطره لاستخدام القوة لإجبارهم على عدم مبارحة حدود دولته، وتطور الأمر إلى حدوث مواجهات بينهم وبينه (بل، مخطوط)، وهو ما اعتبره الشيخ عثمان موقف عدائياً ضده، ودعماً معلناً من قبله لخصومه (زكي، دت).

ولأن موالاة الكافرين كفراً بواحاً بيناً في عرف أمير المؤمنين باشرت جيوشه في اقتحام مملكة كانم – بورنو، زادها في ذلك قوة روحانية متأججة مردها إلى التفويض الإلهي الممنوح للإمام المجتبى، وإعلاء لقيم الفداء والتضحية والشهادة، فكل معاركهم كانت

بدر الكبرى (بل، مخطوط)، وما انكساراتهم إلا ابتلاء يجزى به الصابرون (عبدالظاهر، 1991)، وعصبية اثنية شيعتها وشائج الدم والقربى، ونظمتها في جيوش وسريا ما انفكت تثرى على ساحات الوغى، حتى من الفولاني الوثنيين الذين لا يدينون بالإسلام (الشيخ، 1983).

تهاوت قرى ومدن كانم – بورنو بشكل سريع ومريع، ولم يجد سلطانها أمامه إلا مغادرة قصره من أبوابه الخلفية طلباً للنجاة، بعد أن استباحت جيوش الفاتحين حاكمة ملكه، والتي واصلت بسط سيطرتها على ما تبقى من بلاده (يونس، 1976).

وفي الوقت الذي أكدت فيه جميع المؤشرات على قرب أفول نجم أقدم الكيانات الإسلامية في المنطقة، كان للأقدار رأي آخر ونهاية غير التي شاءها وخطط لها عثمان وأتباعه، ذلك أن زعيماً روحياً وبمواصفات خاصة تصدر واجهة الأحداث فيها، فقد قرر الحاج محمد الأمين الكانمي[1]، المواجهة وعدم الفرار من بلاده مع جموع الهاربين الذين يتقدمهم السلطان أحمد وولي عهده.

لقد كان الكانمي يتمتع بنفس مؤهلات ابن فودي تقريباً، أو لنقل النسخة الكانمية منه، فهو من العلماء المعتبرين المجازين من الأزهر الشريف، إضافة إلى تنقله بين عدد من الحواضر الإسلامية، ومنها فاس ومكة والمدينة والقدس طلباً للعلم، وعندما عاد إلى وطنه عمل على نشر الدين، وتصحيح ما علق به من أخطاء، وعرف بين الناس بالتقوى والصلاح، ولأنه خطيب مفوه ودرب اللسان سرعان ما أصبح له طلاب ومريدين كُثر، وكلمة مسموعة عند العامة، وما إن أعلن عزمه على صد الصائلين حتى تقاطر عليه أتباعه ومناصريه من تلاميذه وأبناء جلدته، إضافة إلى القبائل العربية القاطنة هناك، والتي يبدو أن روابط الدم التي تجمعه معها حتمت عليها دعمه ومؤزرته (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984)، فكان أن حفظ لها ذلك، وغدت من يومها تشكل طبقة مميزة تتمتع بحظوة كبيرة لديه ولدى أبناءه من بعده.

وبين جهاد دفع وطلب احتكم المتخاصمين إلى ما صنع الحداد، واحتدم الصراع بينهما، وتمكن الكانميون من صد البغاة وتحرير جل أراضيهم من ربقتهم، وإعادة تنصيب السلطان دونمة الذي خلف والده على عرش المملكة.

وعلى الرغم من عودة الكانمي إلى سابق عمله في الوعظ والإرشاد، إلاَّ أنه أمسى يمثل رمزية كبيرة لأبناء شعبه، لا بل لسلطانهم أيضاً، والذي لم يجد أمامه إلاَّ الركون إليه والاحتماء به، عندما داهمته خيول خصومه من جديد (يونس، 1976).

لم تكن استجابة الكانمي لسلطان كانم – بورنو مجانية هذه المرة كما في المرة السابقة، فقد اشترط عليه أن يتنازل له على نصف الأراضي التي يستردها من المحتلين، وكان له ما أراد، بل أكثر من ذلك، فبعد أن تمكن من قهر وطرد الغزاة مجدداً استبقاه السلطان دونمة إلى جانبه لردع أعدائه في حال أعادوا الكرة ثانية، وليصبح بعدها للمملكة حاكمين، أحدهما إسمي شكلي، والآخر فعلي وهو الحاج محمد الأمين الكانمي، والذي أضحى يتمتع بسلطات واسعة ونفوذ كبير (زكي، دت).

---

* من مواليد إقليم فزان في ليبيا، وتختلف المراجع حول أصوله، فمنها ما ينسبه إلى أبوين كانميين، ومنها ما يدعي إنه لأم فزانية وأب كانمي، وبعضها يزعم أن أباه فزاني وأم طرابلسية، غير أنني سمعت من الحاج عبد الحفيظ الغزالي حفيد أحد أكبر التجار الليبيين في أفريقيا، والذي ارتبط أجداده بعلاقات مع الكانمي وأبناءه عمر وعبد الرحمن وهاشم والتي يدلل عليها ما أطلعني عليه من مراسلات أحتفظ بعدد منها، إن لديه ما يؤكد بشكل قاطع إنه لأبوين فزانيين واعتذر لعدم تزويدي بهذه الأدلة أو الوثائق لإدراجها في إطروحتي لأنه يعد كتاباً يتناول فيه تاريخ المنطقة وسينشرها فيه فاحترمت رغبته ولم ألح عليه في السؤال، وإلى الآن لا أعلم إلى أين وصل في مؤلفه.

تغير مفهوم الجهاد عند الشيخ عثمان بعد الوصول إلى الملك:

بعد أن دانت له أجزاء واسعة من منطقة السودان الأوسط، قسم أمير المؤمنين ملكه إلى شطرين، شرقي وأمر عليه ابنه وقائد جيوشه محمد بل، وغربي وعهد به إلى شقيقه ووزيره الأول عبد الله فودي (ذهني، 1988)، ثم أعلن نهاية مرحلة الجهاد، وتفرغه للدراسة والتأليف والتأمل، وتقديم النصح والمشورة للأمراء والحُكّام مكتفياً بمنصب الزعيم الروحي (إبراهيم، المسلمون والأستعمار الأوروبي في أفريقيا، 1989).

لم يجد عبد الله فودى أمامه إلا الجهر بالسوء في وجه أستاذه وقدوته، مستنكراً ومنتقداً قراره بإنهاء مرحلة الجهاد، زاعماً بأن المقصد والمراد من تشريعه لم يتأتى بعد، وأن البعض لمآرب دنيوية سلطوية انحرفوا به عن مساره لتحقيق طموحاتهم ومصالحهم الذاتية، دون أي اعتبار لحرمة الشريعة وتعاليمها (كاني، 1986).

واجه الشيخ عثمان الفريق المعارض الذي يقف شقيقه عبد الله في مقدمته، بطرح أقل ما يمكن أن يقال فيه إنه متناقض مع آرائه السابقة، التي بلغت حد تكفير أقاليم الهوسا حكاماً ورعية، حيث اعتبر أنه من المتعذر بل من المستحيل إلزام البشر بنهج معين للتباين الكبير في قدراتهم الاستيعابية لمضمون حركة الجهاد، كما أن كفة سلبيات الجهاد ترجح عن كفة إيجابياته، وهذا بعض مما جاء في رده على منقذيه: "فاعلموا يا إخواني أن الله قد منَّ علينا في هذا الزمان ببيان ما يعتقد في دين الله، وبيان ما يعمل في دين الله وبيان ما يترك في دين الله، وبيان ما يباح في دين الله، وإزالة الشبه عن دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخويف الناس بما يحملهم على ترك معاصي الله، وتبشير الناس بما يحملهم على عبادة الله، ثم منّ علينا بالهجرة وتأمير أمير المؤمنين واتخاذ آلات الجهاد... ثم من علينا بالجهاد وتأمير الوزراء وتأمير أمراء الجيوش وتأمير الخازن وتأمير أمراء البلدان وتأمير الكُتاب وتأمير الرسل إلى الملوك واتخاذ الخدام في الحضرة وتأمير القضاة وتأمير أمراء الحدود وتأمير أمراء الحج، فهذه ثلاثة وعشرون خصلة من شعائر الإسلام كعدد سنين رسالته صلى الله عليه وسلم. نحمد الله تعالى الذي منَّ علينا بإظهار هذه الشعائر في آخر الزمان" (كاني، 1986).

ولأن الحديد بالحديد يفلح، فقد انبرى الشيخ محمد الأمين الكانمي بعد تمكنه وجماعته من كبح التهور الفولاني، والذي كاد أن يسقط أقدم كيان إسلامي في المنطقة، لتفنيد وإبطال حملة التكفير التي أطلقها الشيخ عثمان في وجه كل من وقف أمام مشروعه.

وتكشف المحاورات التي جرت بين الكانمي وأبناء فودي عن صراع رؤى وتوجهات واجتهادات، هي ذاتها تقريباً التي صبغت مواقف علماء المسلمين من كل القضايا وعلى مر العصور، فدفوع الفريقين في تبرير وجهات نظرهم تضع المراقب في حيرة يستحيل عليه معها تمييز أيهما أقرب إلى المنطق والحقيقة، ويخلص إلى أن تباين موقفهما من القضية نفسها نابع فقط من زاوية الرؤيا التي يعالج من خلالها كليهما القضايا الخلافية، ففي حين اعتبر الكانمي أن ما ادعاه الشيخ عثمان من جهاد لا يعدو عن كونه خروج عن ولي الأمر وشق لعصا الطاعة عليه، وأن ما نجم عنه من سفك للدماء بغير حق لا مبرر له إلا أهوائه الشخصية ونهمه للحكم والتسلط وإعلاء للقبيلة، وأن إثارة فتنة بهذا الحجم بتعلة الفساد الاجتماعي والأخلاقي وانتشار البدع، لا تستدعي إراقة كل تلك الدماء، وكان من الممكن لجمها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصة وإنها مظاهر عامة يمكن معاينتها في كل البلدان الإسلامية، وليست في بلاد الهوسا والسودان حصرا (الشيخ، 1983)

ويُظهر الكانمي في مرافعته من العلم وقوة الحجة ما يكفي لهدم الأسس التي أقام عليها الشيخ عثمان فتواه بتكفير أهل الهوسا وكانم – بورنو، والتي استباح بها دمائهم وأرزاقهم وحرماتهم، فيقول: "... لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم وجدت النار بينكم وبين أهل الوطن موقدة، فسألت عن السبب فقيل بغي وقيل سنة، وتخيرنا في الأمر... فقمنا مدافعين عن أنفسنا متبرئين لله من سوء صنيعكم حين ضاقت علينا الأرض ولم نجد مقاماً ولا مجالاً" (بل، مخطوط).

ويتسأل الكانمي مستنكراً "فأخبرونا عن قتالكم واسترقاقكم أحرارنا، إن قلتم فعلنا ذلك لكفركم فإنا من الكفر براء وهو بعيد عن ساحتنا، فإذا كانت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعمارة المساجد كفراً فما الإسلام؟ فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة كنائس أم بيع أو بيوت نيران، وإن كانت من غير شعائر الإسلام فلم صليتم فيها حين ملكتم، هل ذلك إلا إطلاق متناقض؟ أما عن المخالفات التي يرتكبها الأمراء وعامة الناس من ركوب إلى بعض الأماكن، "المقدسة" بغرض التصدق وكشف رؤوس النساء وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم والجور في الحكم، فإن هذه الأشياء مع تحريم مرتكبيها إلا أنها لا تستدعي إقامة الجهاد لأنها بدعة شنيعة مذمومة وجب النهي عنها والإنكار على فاعلها لكن لا يكفر بفعلها" (بل، مخطوط)، ويمضي الشيخ الكانمي في دحض حجج خصومه فيضيف "وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام وهي بين مصر والشام، وذلك موضع الإسلام، وبأرضها شجرة تتبرك بها العامة وتفعل مثل فعل الأعاجم ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم، ولا قال أحد بكفرهم، ولو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا الفعل" (بل، مخطوط) وكذلك (الشيخ، 1983).

إن ما خلص إليه الكانمي لا يبدو مجافيا للحقيقة، من جهة شيوع وانتشار الظواهر المخالفة لصحيح الدين في عموم الأمصار الإسلامية، والتي لم يفت علمائها بتكفير فاعليها، على عكس ما ذهب إليه عثمان بن فودي، كما أن زعمه بأن شهوة الملك هي الدافع الحقيقي لما قام به، افتراض له وجاهته، ولا يمكن تجاهله بالنظر إلى أن جميع قادة جيوشه عدا واحد من قبيلته، فيما تمخضت حركة الجهاد المزعوم عن ملك عضوض توارثه أبناءه وأحفاده دون غيرهم إلى أن اجتثتهم شركة النيجر البريطانية عام 1902م (مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،1995)، فيما تناوب شقيقه عبد الله وأولاده من بعده على حكم شطر الإمبراطورية الأخر بمعزل عن المركز (عبدالله عبدالرازق إبراهيم، 1984).

ويستطرد الكانمي وبعبارات واثقة ليؤكد كل ذلك قائلاً "... مع وجود كبار العلماء في البلاد الإسلامية الأخرى لم أسمع بأحد ينادي بالجهاد ضد المعاصي والبدع.. فهذه مصر مثل برنو وأعظم منها، كذلك الشام وجميع مدن الإسلام فيهن الرشوة والجور وأكل مال اليتيم والظلم والبدع منذ زمن بني أمية إلى يومنا هذا، ولا يخلو زمن ولا بلد من نصيبه من البدع والمعاصي، فلو كفر الجميع بطلت تواليفهم، فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفرة... فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين أحببتم الملك ورغبتم فيه وسولت لكم أنفسكم، وتخيلتم ما تخيلتم واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً، ولا سيما وقد سمعت عن سير الشيخ عثمان بن فودي وأرينا من مؤلفاته ما يخالف فعلكم، فإن كان هذا الأمر صدر من رأيه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.." (بل، مخطوط) وكذلك (كاني، 1986).

وعلى الجانب المقابل وبتكليف من والده (طرخان، 1975)، يقف محمد بل متحدّياً للكانمي، وممثلاً لوجهة النظر الأخرى، ليقارع حججه، وبعبارات لها ما يسندها، فهو يرى إن من واجبات العلماء مجابهة الفساد والقضاء عليه، كما أن تقاعس العلماء في

البلاد الإسلامية الأخرى عن النهوض بأعباء وظائفهم التكليفية هي حجة عليهم وليست حجة على المجاهدين، ناهيك عن أن البدع الوثنية والجور الاجتماعي والسياسي وعموم المفاسد توجب إعلان الجهاد وتحكيم الشريعة.

ولأن الولد سر أبيه، فلم يجد غضاضة في القول بفساد المذهب الذي عليه الكانمي، ثم لم يلبث أن اتهمه وأتباعه بالردة، بل تعداها إلى التشكيك في أنه قد سبق له الإسلام أصلاً، حيث يقول: ".. واعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار حوس [الهوسا] دوننا بغير تقية، ومن يواليهم فهو مثلهم كتاباً وسنة وإجماعاً ولقيامكم أيضاً على إذاية المجاورين لكم من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة وبدأتموهم بالمقاتلة تعصباً لملوك حوس، ولا جرم أن الرضا بالكفر، كفر وتعلمون على هذا أن معرفة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد لا يمنع من قتالكم ولا ينفعكم في الدنيا والآخرة لثبوت ارتدادكم إن كان قد سبق لكم الإسلام الصحيح"[1].

لقد دار سجال وجدل طويل بين الطرفين، امتد لوقت ليس بالقصير، تجلى فيه بوضوح قدراتهما على مقارعة الحجة بالحجة، مما يظهر الدرجة الكبيرة التي بلغاها في الفقه والعلم وقواعد القياس والاستدلال، إلا أنه يبرز أيضاً وبجلاء أكثر سطوعاً اجتهادهما في تسخير فقههما لخدمة قضايا دنيوية صرفة، كلاً حسب ما تقتضيه مصالحه، فالكانمي لم يكتف بموافقة حاكم كانم – بورنو على شرطه أن يملك نصف الأراضي التي يستردها من الفولاني نظير دعمه له، فقام بعزله عن عرشه والجلوس محله وظل يتوارثه أبناءه من بعده إلى أن قيظ لهم الله المغامر رابح فضل الله الزبير ونزع منهم ملكهم[2]، فيما اعترف به محمد بل الذي خلف والده وبوصية منه في مملكة الفولاني (إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوروبي في أفريقيا، 1989)، وتصالح معه، واتفقا على التعايش جنباً إلى جنب بعد أن عجز عن اجتثاثه (عبدالظاهر، 1991)، فتحول الكانمي ورهطه بذلك من كفرة مرتدين إلى مسلمين كاملي الأهلية، وباعتراف ضمني من أمير المؤمنين، ذلك أنه لا يجوز شرعاً موالاة المؤمنين للكفار ولأن الرضا بالكفر كفر مثل ما أفتى فيهم سابقاً.

الخاتمة:

لأن أصل الأشياء ما قد حدث، فقد أصبح للفولاني وطن ودولة، مارسوا فيها السيادة الكاملة على كل الملل والنحل التي أدخلوها طوعاً أو كرهاً تحت حكمهم، ولأن الأمة مجموعة أصفار لا قيمة لها بدون الواحد، فلم تفوّت قبائل الفولاني فرصة ظهور قائد بحجم ومواصفات الشيخ عثمان، ولم تضيعه، كما فعلت غيرها من الأمم، فكان لها خشبة الخلاص والمخلص في آن واحد.

لقد اجتمعت في حركة الشيخ عثمان أهم العوامل المحركة للتاريخ، فاجتماعياً لم تكن ممارسات قبيلته في سبل ووسائل العيش، والتعامل مع غيرها من المكونات إلاّ تعبيراً جلياً عن شعورهم بالاختلاف عن الآخرين، وإن ما برهنت عنه من تدافع لنصرته حتى من غير المسلمين من أبنائها، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك طغيان العامل العرقي، على مشروعه، حتى وإن لم يدعوا لذلك أو

---

* للاطلاع على المراسلات المتبادلة بين محمد بل والحاج محمد الأمين الكانمي، انظر محمد بل، المصدر السابق، ص124 وما بعدها.

* مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وثائق غدامس، مصنف بشير قاسم يوشع لعام 1995م، وثيقة رقم (82)، رسالة من محمد حيده وأخيه إلى أحمد بن محمد هيبة، بتاريخ 1893م، كذلك وثيقة رقم (86)، رسالة من بزم إلى أحمد بن محمد هيبة، بتاريخ 1893م، أيضاً وثيقة رقم (87)، رسالة من محمد بن أحمد هيبة إلى أحمد بن سالم بن حمد كتلى، بتاريخ 1892م.

يريده، وسواء اعترف به الرافضون لهذا القول أو أنكروه، أما الدافع الاقتصادي أو المادي فإن مسلك الحكام في فرض الإتاوات والضرائب وطرق جبايتها من الخاضعين لهم ظل يغذي حالة من المظلومية التي يشعر بها الفولاني والتي تحولت إلى إحساس بالاضطهاد، يضاف إلى ذلك ما أتاحه الجهاد من مردود مادي تحت مسمى الغنائم والانفال، والتي لا شك في أنها ساهمت بقدر لا يستهان به في الجز بالكثيرين في غماره، فيما كان المحرك الديني هو الأهم والأكثر تأثيرا من خلال ما رسخه الشيخ عثمان في نفوس وعقول تلاميذه ومريديه، فلا شيء يعادل نشوة المتدين وهو يقبل على ساحات الوغى معتقدا بأنه يتقرب إلى الله بفعل القتل والتدمير، الذي يمارسه طلباً للأجر والمثوبة، غير مكترث بما يتجشمه من متاعب وصعاب، وعندما يتحول الموت وما يحمله من بشاعة إلى أمنية ومطلب انتصارا لقيم الشهادة المشفوعة بعظيم الجزاء فلا ريب أن الصراعات من هذا النوع تكون أكثر دموية، وغالباً ما تنتهي بانتصار من يقاتلون بباعث عقائدية، حتى وإن كان هذا الانتصار معمداً بدماء المستضعفين والذين لا ذنب لهم إلا أن إيمانهم لم يطابق فهم الشيخ عثمان لصحيح الدين.

وسواء وظف الشيخ عثمان قبيلته لخدمة الدين، أو سخر الدين انتصاراً لعرقه، فإن النتيجة في الحالتين واحدة، وهي دولة عرقية كاملة الأوصاف، غير أن التركيز على الجانب الديني في حركته باعتباره المشهد الأول والأخير أو حتى النهائي، هو من افتعال أنصار هذا الرأي بقصد تنزيهه من أية دوافع دنيوية أخرى، في حالة تبرير واضحة ومكشوفة قائمة على أن الدين يدعو إلى الابتعاد عن الأهواء والمصالح الشخصية، أو بمعنى آخر هو تجرد من الفردية والذاتية، ولأن روح أي شعب وشخصيته هي جزءاً من تصوره لفكرة الألوهية، ومن تم كان الدين أقرب صور النشاط الإنساني تحقيقاً لأهداف الدولة، فلابد أن يكون المتدينين أكثر استعداداً للانقياد وأداء الواجب نحوها، لأنها بمفهومها العقلي تقوم على أساس الدين.

ومع كل ذلك فإنه يتوجب الأخذ في الاعتبار بأنه ليس بالضرورة أن تكون شهوة الحكم والتسلط هي الدافع الوحيد أو الرئيس للشيخ عثمان للقيام بفعلته، إلا أننا وبارتياح كبير نستطيع التأكيد بأنه كان طامحاً إلى إقامة دولة يطبق فيها الدين حسب فهمه هو، من منطلق احتكاره لوحده للحقيقة الكاملة، والتي هي ما خلص إليه من قراءاته وأفكار من أشبعوه بهذا الفهم منذ نعومة أظفاره، وليست بالضرورة محل إجماع أو حتى اتفاق بين علماء عصره، شأنه في هذا شأن الحركات الجدرية التي لا تؤمن بالتغيير إلا بالعنف والتعميد بالدماء.

لقد أبان الجدل الفقهي الذي دار بين الحاج محمد الأمين الكانمي، وأبناء فودي عن عمق الهوة بين التوجهين، ففي حين مثّل الأول مدرسة منفتحة على قدر كبير من التسامح والسعة، ظهر الشيخ عثمان منغلقاً جذرياً في معالجته للبدع والمخالفات التي كانت موجودة في المجتمع، والتي لا يمكن إنكارها، والتي لم يمكنه ما جمعه خلال فترات عمره من غزير علم وفقه أكثر من أن يكون حاداً في موجهتها، متطرفاً بالقدر الذي لم يتردد معه في تكفير حتى من تتلمذ على يديه ووصل للسلطة بدعمه ومباركته، لمجرد أنه أراد أن يمارس الحكم بدون وصاية منه.

إن احتكار معرفة الحقيقة كان دائماً ديدن الحركات الدينية الإسلامية، والتي استمرت في ازدراء الشعوب والنظر إليها باستعلاء وحتى احتقار، كونهم عوام ودهماء، غير أنها لم تلبث أن دخلت في خصومات مع نظرائها من ذات التواجه، وانقسمت شيعاً وأحزاب اجتهد كل منها في تسفيه الآخر، لكي يصفو له وجه الرعية وحده دون غيره، كما كان بين الكانمي وأبناء فودي، وهو حال أغلب الحركات الإسلامية اليوم.

انتهت حركة الجهاد الفولاني إلى سلطة سلالية، اختصت نفسها بكل ما للحكم من صلاحيات ومزايا، بعيداً عن ما نظّر إليه الشيخ عثمان حول إشكالية الحاكمية في الإسلام، والتي يعتبرها أصلاً من أصوله، بالنظر إلى دعوته لإقامة الخلافة وتحديده لمواصفات الأمير ووجوب البيعة له وتحريم بقاء مكانه شاغراً أو شاغلاً بمن لا تنطبق عليه ما قرره من مؤهلات، الأمر الذي يكشف عن الصعوبة البالغة في التوفيق بين التنظير والفعل، فلا يعقل أن لا يتم تحكيم شرع الله في الأرض إلا من خلال أبناء فودي أو بواسطتهم دون غيرهم، وما على الأتباع والحواريين والعامة عموماً إلا أن يُعبدوا بجثثهم وجماجمهم الطريق لهم.

أخيراً على الحركات والتنظيمات الإسلامية أن تدرك بأن اختلافها ليس رحمة على الإطلاق ولن يكون كذلك في يوم من الأيام، بل على درجة كبيرة من الخطورة لأن تباين فهمها ورواءها وتوظيفها لذات القضية كلاً حسب مصالحه جعل من الدين في نظر الكثيرين لا يعدو عن كونه وجهة نظر لا أكثر.

المصادر والمراجع

إبراهيم صالح بن يونس. (1976). تاريخ الإسلام وحياة العرب في أمبراطورية كانم– بورنم. القاهرة: شركة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي.

إبراهيم طرخان. (1975). إمبراطورية البورنو الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أحمد محمد كاني. (1986). ملامح من الجهاد الأسلامي في غرب أفريقيا. القاهرة: الزهراء للأعلام العربي.

أحمد محمود صبحي. (1994). في فلسفة التاريخ. بيروت: دار النهضة العربية.

إلهام محمد علي ذهني. (1988). جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850- 1914). الرياض: دار المريخ للنشر.

بوفيل. (1988). تجارة الدهب وسكان المغرب الكبير (المجلد 2). (ترجمة: الهادي أبو لقمة، ومحمد عزيز،) بنغازي: جامعة قاريونس.

حسن عيسى عبد الظاهر. (1991). الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي.

عبدالرحمن أحمد عثمان. (1990). مشروع تنصير قبيلة الفولاني. الخرطوم: المركز الإسلامي الأفريقي.

عبدالرحمن زكي. (دت). الإسلام والمسلمين في غرب أفريقيا. القاهرة: معهد الدراسات الإسلامية.

عبدالرحمن عبدالله الشيخ. (1983). دول الإسلام وحضارته في إفريقيا. الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع.

عبدالله بن أحمد متيضن. (1902). رسالة من عبد الله بن أحمد متيضن إلى أبي بكر بالقاسم بن أحمد الفقي. طرابلس: مركز جهاد الليبيين.

عبدالله عبدالرازق إبراهيم. (1984). الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا. القاهرة: الأنجلو المصرية.

عبدالله عبدالرازق إبراهيم. (1989). المسلمون والاستعمار الأوروبي الأفريقي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة.

عبدالله عبدالرازق إبراهيم. (1989). المسلمون والاستعمار الأوروبي في أفريقيا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة.

محمد بل. (مخطوط). إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. سكتو– نيجيريا.

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وثائق غدامس، مصنف بشير قاسم يوشع لعام 1995م، وثيقة رقم (101)، رسالة من عبد الله بن أحمد متيضن إلى أبي بكر بن قاسم بن أحمد الفقي، بتاريخ 1902م.